

لوحات فنية في القرآن الكريم



لقد جاء القرآن في الأُمّة العربية التي عُرِفَت منذ زمن بعيد بأنها أمة ملكت ناصية البيان، وأسرار صناعة القول فبدهها وأثار دهشتها بما أَلَفَتْهُ فيه من بلاغة وبيان يفوق ما عهده وما عرفه العرب وهم أرباب هذه الصناعة. إنَّ هذا القرآن جاء بأسلوب متميز بين سائر الأساليب، فليس بمقدورنا أن ننتعه بأنّه شعر أو نثر وإنما هو قرآن يقول الباقلاني: (صُمِّمٌ بِكُمُ عُمِّيُّ) (البقرة / 18)، جاء بالصم أو لا، ثمَّ البكم ثمَّ العمي لماذا؟ لأنَّ الصمم - وهو عدم السمع - ينتج عنه البكم - وهو عدم الكلام - لأنَّ اللسان يحكي أشياء قد سمعها بأذنه فإن انعدم السمع انعدم عندئذ الكلام فالصمم سابق على البكم، ولاحظ فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي أنَّ الحق جاء في القرآن بلفظ السمع مفرداً ولكن لفظ البصر جمعه في مثل قوله: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) (النحل / 78)، والعلة في ذلك أنَّ الإنسان إذا كان في جماعة من الجماعات وبعد ذلك صدر صوت من الأصوات فالإنسان لا خيار له في أن لا يسمع أو يسمع لأنّه ما في بدن الأذن آلة يستطيع الإنسان أن يسدها حتى لا يسمع ولكن العين يستطيع الإنسان إذا ما كان في مجموعة من المجموعات وجاء مرءاً من المرائي إن شاء أبصره وإن شاء لم يبصره فإن شاء أن يبصره فتح عينيه وإن شاء ألا يبصره أغمض عينيه. ويمكننا أن نحصر مجالات التصوير القرآني في ثلاثة أمور: الأوّل منها: التصوير القرآني في مجال الترغيب والترهيب، الترغيب في ثواب الله والترهيب من عقابه، والثاني

منها: القصة - بعبارة أخرى - أن القرآن قد حوى على قصص وردت كأمثال على سبيل العظة وهي مجال خصب للتصوير المجازي والتصوير البياني، والثالث منها: مجال الأوامر والنواهي - الحث على الخير والمعروف والعمل بها في الحياة واجتناب النواهي من فواحش وكبائر ومفاسد وعدم اقترافها وهذا المجال كذلك كان خصباً استخدم فيه القرآن التصوير الفني على أنواعه

المختلفة.. ولك هذه الصورة في مجال الترغيب في الجهاد بالنفس والمال يقول سبحانه:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ
الْمَمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَعْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) (البقرة/ 243).

فإنَّ - سبحانه وتعالى - أراد الترغيب في الجهاد بالنفس والمال فمهد لذلك بذكر قصة تدل على أنَّ الحذر من الموت لا يفيد لأنَّ الحذر من الموت هو الذي يخيفهم من الجهاد فذكر قصة الألوف الذين خرجوا حذر الموت وهم قوم من بني إسرائيل أمروا بالقتال فتقاعسوا خوفاً على أنفسهم أرسل الله عليهم وباء قضى على كثير منهم فاعتبر به من نجى وجاهد في سبيل الله شكراً على نجاته ثمَّ أمر المسلمين بالقتال في سبيله في هذا التحذير ووعد من ينفق منهم شيئاً فيه بأن يضاعفه له أضعافاً كثيرة. ثمَّ خذ مثلاً آخر يترجم براعة القرآن في تجسيم معانيه فإذا هي كائن حي فيه حركة وروح يقول سبحانه: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْيَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا)

(الإسراء/ 29).. فهذه الآية التي تدعو إلى التوسط في الانفاق تحوي صورة حية فتعرض لنا صورة المسرف المحسور وهو يضع يده إلى عنقه مغلوله حزناً وأسفاً على تفريطه، وفي سورة الواقعة يعرض الله لنا صورة الذين آمنوا وما أعد لهم من جزاء أخروي والذين كفروا وما أعد لهم من عقاب فيقول في شأن من آمن: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَاثَةٌ * مِنَ الْأُولَٰئِينَ * وَقَلِيلٌ * مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ * عَلَيْهِمْ مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ * بَرَأ كُؤَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّـَّرُونَ * وَلَحْمٍ طَيِّبٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عَرِينٌ * كَأَمْثَالِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ * مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظِلٌّ مَّمْدُودٍ * وَوَمَاءٌ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٌ مَّرْفُوعَةٍ * إِنْ زِلْنَا أَوْ نَزَّلْنَاهُنَّ * إِنْ شَاءَ *)

فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَاثَةٌ
 مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (الواقعة / 40-10). فبعد أن شوق - سبحانه
 - الذين آمنوا بما أعد لهم في الآخرة جنة عامرة بالطيبات والخيرات والنعم الكثيرة
 عارضاً ذلك في صورة حسية رائعة فيعقبها بصورة أخرى تبين مصير الكافرين في الآخرة وما
 أعد لهم من عذاب مهين فيقول: (وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّامَالِ * فِي
 سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظُلٍّ مِنْ دَخْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّ رَبَّهُمْ
 كَانَ زُوًّا قَبِيلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ
 * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا
 لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآيَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ *
 لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّ زَنْدُكُمُ أَيُّهَا
 الضَّالُّونَ الْهَامُّكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ * فَمَالِئُونَ
 مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ
 الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ) (الواقعة / 56-41).. ومن عادة القرآن
 دائماً أن يعقب الترغيب أو صورة ما أعدّه من ثواب للطائعين المؤمنين المخلصين بالترهيب
 أو صورة ما أعدّه من عقاب للذين كفروا وعصموا وجانبوا جادة الحق، فقبل أن يخرج الإنسان
 من نشوة صورة الذين آمنوا واقباله على الإيمان طمعاً في جزائه - سبحانه - ينفره من
 الكفر خوفاً من عقابه فيزيده اقبالا على الإيمان والتماس مرضاة الحق فهو تصوير نفسي
 يعالج نفس الإنسان وما جبلت عليه من ملكات وليس غريباً في ذلك فإنّ الإنسان
 ويعلم ما جبل عليه من صفات وطباع.. وأراد أنّ يرغبنا في افادة الآخرين بما آتانا -
 سبحانه - من علم ومعرفة فيسوق لنا هذا المعنى في صورة بيانية رائعة فيقول: (وَاتْلُ
 عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتَّيْعَهُ
 الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا
 وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ
 إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ
 الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)
 (الأعراف / 176-175). فذكر نبأ عالم أتاه علم كتبه فلم يعمل به فتولاه الشيطان حتى أضله
 وصار مثله كمثل الكلب في خسته وذلته ثم ذكر أنّ هذا مثل الذين كذبوا بآياته وأمر
 النبي (ص) أن يقصص عليهم ذلك المثل لعلهم يتفكرون. وثمة صورة أخرى من صور القرآن
 نسوقها هنا تحثنا على استقبال نعم المنعم بالحمد والشكر يقول: (وَاضْرِبْ لَهُمْ
 مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِحَدِيثِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَخَفَّفْنَاهُمَا

بِنَدْخَلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا * كَلَّا تَالُ الْجَنَّةِ تَدِينُ آتَتْهُمُ أَكْثَابُهَا
وَلَمْ تَطُولِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهَا نَهْرًا * وَكَانَ لَهُ
ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ
نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَطْنُ أَنْ
تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَطْنُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُددْتُ إِلَيَّ
رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ
سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا *
وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ
إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي
خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيَصْبِحَ
صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَأْوُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا *
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَزْفَقَ فِيهَا
وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي
(أَحَدًا) (الكهف/ 42-32). فيالها من لوحة كلامية رائعة.. إنها صورة الإنسان الذي أتاه
□ من نعمه ونسي من أعطاه فتكبر على خلق □ كنوداً بالنعمة، أعطاه □ المال والولد
فتكبر بهما ونسي أن □ هو الذي أعطاه إياها وقادر على سلبها منه فانظر إلى قوله
سبحانه: (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَزْفَقَ فِيهَا) (الكهف/ 42)، وهو
تصوير نفسي لمن يفقد النعمة، تصوير لحالة الندم على ما فاتته من فرصة لم يغتنمها فهي
صورة حسية جميلة تبين لنا حال الندم كيف يكون شكله.. "يقلب كفيه" ويضرب كفاً على كف
ندماً لأن المال والنعمة لم تورثاه التواضع حتى يزيده وإنما أورثاه العالي والتكبر
فكان مصير الجنتين الهلاك والفناء وقد عرض الحق هذا كله في صورة قصصية رائعة رسمت بريشة
فنان خالق مبدع فاعجز في رسمه وابداعه.. وكذلك قصة أصحاب الكهف التي تبين كيف أن □
يحفظ الذين آمنوا من خلقه من الظالمين وأن □ يملك النشور قادر على البعث والحساب.
فالقرآن جاء تحفة جميلة.. زاخر بألوان البيان مجازة وتشبيهه واستعارته.. ويحمل في
طياته أسرار المعاني والعبر قد سكبت في ثوب قصصي جذاب مشوق، إنَّه بستان لا يمل يعج
بالأزهار والرياحين على اختلاف ألوانها وأشكالها ورائحتها.. فكان معجزة رائعة باقية. *

باحث من فلسطين، محاضر في جامعة صنعاء باليمن